الفصل الأول

الخلافة الراشدة

في عهد أبي بكر الصديق

أولاً: نشأة نظام الخلافة:

إن سلطات الرسول ﷺ السياسية في قيادة الدولة والمجتمع كانت قد تأسست بصورة تدريجية استناداً إلى سلطاته الدينية بصفته رسول الله يتنزل عليه الوحي من السماء بأوامر الله ونواهيه. وقد أوضح القرآن الكريم أنه ليس لأحد من الناس أن يدعي لنفسه مثل هذه الصفة في حياة الرسول ﷺ أو بعد مماته: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [1].

فلما توفي رسول الله ﷺ، أدرك المسلمون أن صفة الرسالة أو النبوة قد انتهت بوفاته لأنه خاتم الأنبياء، وإن النبوة لا تورث، فتكون السلطة السياسية المنبثقة عنها هي الأخرى غير قابلة للوراثة، وتعود بوفاة شاغلها إلى أصحابها الأصليين، وهم أبناء الأمة ليختاروا من يولونه أمورهم السياسية طبقًا لما قررته الشريعة الإسلامية من أحكام، وما استقر في مجتمعهم من عرف وتقاليد تنسجم مع هذه الأحكام.

ويلاحظ أن القرآن الكريم والسنة النبوية قد أوضحا الأسس العامة التي ينبغي على المسلمين مراعاتها في تنظيم حياتهم السياسية مثل المساواة والشورى والعدالة[2]، ولكنها لم تنص بصورة جلية لا تقبل التأويل أو الخلاف على تحديد طبيعة نظام الحكم وشكله وكيفية اختيار من يتولون السلطة فيه. وربما كانت الحكمة التي تقف وراء ذلك أن نظام الحكم وما يتصل به من قضايا دائمة التغير والتبدل بحسب ظروف الزمان والمكان، مما يتطلب ترك ذلك لأبناء الأمة يتصرفون فيه طبقًا لأوضاعهم وظروف الزمان الذي يعيشون فيه.

بناء على ما تقدم، فقد شعر المسلمون بعد وفاة الرسول ﷺ أن عليهم اتخاذ قرارات خطيرة وصعبة لتنظيم حياتهم السياسية بما يضمن المحافظة على وحدة الأمة

---

(1) سورة الأحزاب، الآية 40.

(2) القرآن الكريم، سورة النساء، الآية 58، سورة المائدة، الآية 58، سورة آل عمران، الآية 159، سورة الشورى، الآية 32.

والدولة، وهي لم تتحقق إلا بعد جهاد طويل. وربما كان المسلمون، وبخاصة كبار الصحابة، يدركون بصورة عميقة طبيعة الظروف السياسية والاجتماعية التي كانت قائمة في المدينة وفي شبه الجزيرة العربية عند وفاة الرسول ﷺ، والتي كان ينبغي عليهم أخذها بنظر الاعتبار عند اتخاذ قراراتهم، إذ يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

1. كانت المدينة هي مركز الحياة السياسية والمكان الذي تتخذ فيه القرارات الحاسمة في الدولة لأنها كانت تضم كبار الصحابة الذين عملوا إلى جانب الرسول ﷺ طوال حياته، وكان يعتمد عليهم ويستشيرهم في شتى الأمور.
2. إن صعوبة المواصلات في ذلك العصر كانت تجعل من الصعب على سكان المدن والأقاليم البعيدة عن المدينة المشاركة في اتخاذ القرارات السياسية وبخاصة تلك التي تتطلب السرعة والحسم مثل قرار اختيار من يخلف الرسول ﷺ في قيادة الدولة.
3. كان سكان المدينة يتألفون من الأنصار، وهم أبناء قبيلتي الأوس والخزرج، والمهاجرين الذين كانوا يتألفون من المهاجرين من أبناء قبيلة قريش ثم انضاف إليهم على نحو تدريجي مهاجرين من مختلف أبناء القبائل العربية وبخاصة من أسلم، وغفار، واشجع، ومزينة، وليث، وضمرة، والديل، وجهينة، وغيرها[1].

وقد ترتب على هذا أن الثقل الاجتماعي والسياسي للمهاجرين في المدينة قد أصبح أكبر من ثقل الأنصار. وقد شعر الرسول ﷺ في أواخر حياته بهذا الأمر فأوصى المهاجرين خيرًا بإخوانهم من الأنصار. فقد أورد البخاري أن الرسول ﷺ قال: "أيها الناس، فإن الناس يكثرون وثقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمراً يضربه أحداً أو ينفعه، فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم"[2].

4. إن دخول قبيلة قريش في الإسلام، وانتقال كثير من زعمائها إلى المدينة للسكن فيها، قد أعطى لابناء هذه القبيلة الأرجحية في قيادة الدولة، لأن الرسول ﷺ والمهاجرين الأولين كانوا ينتمون إليها. كما أنه كانت لابناء هذه القبيلة خبرة واسعة في التجارة والسياسة، وهم يرتبطون بتحالفات قديمة مع مختلف القبائل العربية من خلال نظام الإيلاف وإدارة مناسك الحج[3].

إن العوامل الآنفة الذكر قد جعلت الأنصار يشعرون بالقلق على مستقبلهم

---

(1) العلي: الدولة في عهد الرسول، ج 2، ص 431.

(2) ابن المبارك: التجريد الصريح، ج 2، ص 61، ابن هشام: السيرة، ق 2، ص 650.

(3) العلي: الدولة في عهد الرسول، ج 2، ص 431 – 433.